

سلسلة الدراسات التحقيقية
الجهة الشعبية لتحرير فلسطين

٤

موضوعات

فجأ

الاشتراكيات العلمية



سلسلة الدراسات الثقيفية

الجهة الشعبية لتحرير فلسطين

موضوعات

في الفلسفة

الكتاب الأول



مكتبة التكملة

مكتبة قديمة قديمة

شركة

شركة

شركة



دائرة الاعلام المركزي — طبعة اولى ١٩٨٥

الولاية الشمالية

الولاية الشمالية

الولاية الشمالية

الولاية الشمالية

الولاية الشمالية

دائرة الاعلام المركزي

طبعة اولى ١٩٨٥

أولاً: الفلسفة وتحويل العالم تحويلاً ثورياً

ثانياً: مادية العالم بوصفها مبدأ التعليل العالمي للممارسة

ثالثاً: المادة والوعي

رابعاً: قوانين تطور المجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً

خامساً: الطبقات والنضال الطبقي

الفصل الأول

الفلسفة وتحويل العالم تحويلا ثوريا مكان الفلسفة في عقيدة الثوريين

ان العهد المعاصر ، الذي برز ، بالمعنى التاريخي العالمي ، بمثابة ربيع التجديد الثوري للعالم القديم ، قد دشّن تاريخ البشرية الحقيقي ووطده ولا يزال يوطده . وان عظمة العمليات الاجتماعية المعاصرة وتنوعها وتعقدتها تثير حتّى المسائل عن امكانية رسم السبيل الصحيح في خضم الاحداث الجارية ، وتحديد اسبابها ، وطابعها واتجاهها ونتائجها ، وكذلك المسائل من مكان ودور نشاط الناس في هذه العمليات . ان وضع المرحلة الثورية الانتقالية التاريخي نفسه يفرض على الناس فرضا ضرورة امتلاك مبادئ عملية للنشاط ونظام دقيق من النظرات الى العالم والى قوانين تطوره والى امكانيات وسبل المعرفة والتحويل .

المقدمة والفلسفة :

ان الناس يسترشدون بنظرات ومعتقدات معينة في علاقتهم بالعالم المحيط بهم ، في هذا اوزاك من وجوه النشاط ، في مسلكهم وفي نمط حياتهم . وهذه النظرات والمعتقدات تتكون بمقدار ما يستوعب كل امرؤ التجربة الاجتماعية الانتاجية للاجيال السابقة ، بمقدار ما يستوعب مهارات وعادات واساليب النشاط ، وعناصر المعرفة العلمية . ان العناصر الاساسية التي تتكون منها نظرة الانسان العامة الى العالم تضطلع بدور معين في حياته ثم ان مع عناصر المعارف العلمية توجه مهارات واساليب الانتاج المستوعبة الانسان علميا في اختيار واستعمال وسائل النشاط البشري . والمعتقدات والمبادئ والقواعد الاخلاقية تنظم سلوك الناس والعلاقات فيما بينهم ، وتشرط من العوامل النفسية والانفعالية مزاجيا للانسان وسهات طبيعه

ونشاطه الاجتماعي . وعليه :
يمكن تعريف العقيدة بأنها مجمل المبادئ والنظرات والمعتقدات لدى الافراد والطبقات الاجتماعية والطبقات ، الذي يحدد موقفهم من النشاط ، واتجاه النشاط ، والنشاط الاجتماعي .

قد ينشأ انطباع مفاده ان العقيدة هي دائها فقط مزيج صرف من معتقدات الناس ومثلهم العليا الفلسفية والعلمية والسياسية والاخلاقية والدينية والجمالية . ان هذا التصور او الانطباع خاطئ ، لان عقيدة الناس بطوري دائها ، رغم كل غنى الفوارق الفردية والعناصر المكونة الجزئية ، وحدة معينة بين الضمونات الاجتماعية والسدور الاجتماعية . وهذه الوحدة بالذات بين الضمونات الاجتماعية والسدور الاجتماعي هي التي تتيح جمع وتصنيف جميع العقائد الفردية الموجودة باستئصال مختلف معايير الوحدة . ومن هذه المعايير ، الوحدة الطبقة التي تتيح التمييز بين العقيدة البرجوازية والعقيدة البروليتارية ، وكذلك مجمل نظرات الطبقات الاخرى والنظرات الاجتماعية الاخرى . وفيها يتعلق بالاديان ودرجة تأثيرها ، يمكن التمييز بين العقائد الالحادية والدينية . ومن حيث الدور الاجتماعي السياسي في التطور الاجتماعي ، تنقسم العقائد الى عقائد تقدمية وعقائد رجعية .

ان تحليل العقائد حسب المعايير المذكورة آنفا يتسم بأهمية كبيرة ، ويستعمل على نطاق واسع في الصراع الابدولوجي . ولكنه يمكن في الوقت نفسه تحليل العقائد على صعيد اوسع ينجم من الدور العقائدي الخاص الذي تضطلع به النظرات والمعتقدات الفلسفية . فان الفلسفة تقوم بدور خاص مفاده ، اولا ، انها تنظم مختلف عناصر العقيدة في نظام واحد ، وثانيا ، انها تحلل نظريا وتعمم مجمل معطيات الممارسة والعلم ، وثالثا ، انها تحييب عن مسألة الهدف من الوجود البشري ، وعن مسألة مكان دور الانسان والبشرية ، وافقها التاريخي .

ان هذا اوداك من اوجه نشاط الناس من اوجه العلاقات فيما بينهم ، من اوجه سلوكهم ، هو في آخر المطاف صورة مجسدة لمبادئ فلسفية معينة . ان الفلسفة ، اذ تصف التصورات عن الوجود الطبيعي والاجتماعي وعن مكان الانسان ودوره ، انها تضع الاساس لكل نظام نظرات الانسان وتحدد نوعين اساسيين من العقائد : المادي والثباتي . وفي الحالة المعينة ، يشكل الاساس الفلسفي التي تصنف حوله

مختلف عناصر العقيدة - ، ونعني به المادية الفلسفية او الثابتية الفلسفية - اساس التقييم . ان الوظيفة العقائدية للفلسفة وتأثير الفلسفة في توحيد الناس العمل لا يمكن تقييمها بصورة صحيحة الا في حال توضيح مضمون ودور الاتجاهات الفلسفية الاساسية توضحا عميقا .

ان الانظمة والمدارس الفلسفية العديدة تتضمن دائها ، رغم كل تنوعها واختلافها ، جوابا عن مسألة مكان الانسان في العالم ، مسألة العلاقة المتبادلة بين الوعي الذاتي ، والتفكير ، العقل وبين العالم الخارجي الموضوعي ، الوجود ، المادة . ان حل هذه المسألة الاساسية ، الاعم ، يحدد سلفا طابع كل نظام العقيدة ، ويقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين : الماديين والثباتيين . ان المادية تنطلق من اولية المادة ، من اسبقيتها ، من تبعية مشاعر الانسان وتصوراته ووعيه للعالم الخارجي المعاصر . ان المادية التاريخية ، اذ تعتبر الوعي بالامكانية المبدئية لمعرفة الظواهرات والعمليات الموضوعية . فان الوعي الى تفسير العالم كما هو عليه في الواقع ، الى تفسير النشاط العملي تفسيرا علميا ، والصلة الوثيقة مع العلوم الطبيعية قد كانا على الدوام خاصيتين مميزتين من خواص المادية .

وبديهي ان حجج المادية الفلسفية ونظراتها الملموسة تتغير مع مر التاريخ . ففي مختلف مراحل التاريخ البشري ، في المجتمعات الطبقة ، كانت الفلسفة تضم كل مجمل المعارف عن العالم والانسان . ان مادية العالم القديم ، - وهي اشهر مادية من حيث المصادر النقية ، - قد كانت ساذجة ، وكانت تعتبر اكثر الاجسام الطبيعية الملموسة انتشارا (النار ، الماء ، الهواء ، الارض) المبدأ الاول المادي . وباسم احد مؤسسي فلسفة الذرة الاغريقية ، سمي لينين الاتجاه المادي في تاريخ الفلسفة و بخط ديموكريتس .

ان مثل هذه الاشكال للمادية الساذجة قد تجلجت بهذا القدر اوداك في تاريخ العديد من الشعوب وحتى في تاريخ حضارات مندثرة ، كانت قائمة في درجات التطور البشرية الطبقة الاولى . وهذا العامل الاخير مهم من ناحيتين . اولا ، انه يبين الشرطية الاجتماعية التاريخية لنشوء الفلسفات وتطورها بوصفها اشكالا للوعي الاجتماعي ، ولنشوء وتطور التقاليد الفلسفية لدى كل شعب وقسطه الوفاي في الثقافة الروحية العالمية . ثانيا ، انه يكشف البطلان العلمي للنظرات بشأن المركز

الشباب ، يؤمنون بالوحي ، والالهام ، والمخلصين ، وصانعي المعجائب ، وعلى درجة تحصيلهم فقط يتوقف ما اذا كان هذا الايمان سيرتدي شكلا فظ ، دنيا ، ام شكلا مستترا ، فلسفيا ... (١) . واكثر ما يميز الفلسفة القديمة ، انها هونوع منها يسمى بالثالنية الموضوعية . فخلافا للثالنية الذاتية التي تعتبر العالم ومعرفته تابعين للوحي الفردي ، للذات (للفاعل) ، تنطلق الثالنية الموضوعية من اولى (اسبقية) مبدأ روحي غير مادي من طراز الروح العامة ، والفكر المطلق ، وما الى ذلك .

ومن الامثلة على الثالنية الموضوعية القديمة ، مدرسة الفيلسوف والفلكي وعالم الرياضيات الاغريقي فيثاغورس التي اعتبرت الاعداد الرياضية المبدأ الاول (الاسبق) . اما اشهر نظام فلسفي للثالنية الموضوعية فقد وضعه الفيلسوف الاغريقي افلاطون الذي سمي لينين باسمه ، كل خط الثالنية في تاريخ الفلسفة . ومع انصرتنا الان عن كل غنى مضمون هذا النظام الفلسفي ، ينبغي لن ان نشير الى موضوعه المركزية القائلة باولية الاشكال الهولية للاشياء او « المثل » كما سَمَّاهَا افلاطون .

على الصعيد الاجتماعي والسياسي ، كانت مدرستا فيثاغورس وافلاطون الفيلسوفيان تعبران عن مصالح اريستقراطية مالكي العبيد الرجعية . ان هذين الثالنين يبينان ان الثالنية تصوغ نظريا ، على العموم ، عقائد الطبقات والفئات الاجتماعية المحافظة والرجعية التي تعارض تحويل الحياة الاجتماعية ، والتي لها مصلحة لها في اعطاء صورة علمية عن وجود الطبيعة والمجتمع . ولقد كشفت الثالنية ، حتى في اشكالها الاولى ، ازديادها او انكارها للعمل الجسدي ، للنشاط الانتاجي ، لمعرفة العالم المحيط معرفة علمية ولتحويله .

ان الاستنتاجات الانتقادية بصدده دور المادية القديمة والثالنية القديمة العقائدي والاجتماعي لايفي البتة اهميتها الاجتماعية التاريخية . واذا سكبنا بصيفة جديدة جملة انجلس المشهورة « لولا العبودية القديمة ، لما كانت الحضارة المصرية » ، امكنتنا ان نقول انه لولا الفلسفة القديمة ، لما كان التفكير النظري العصري . فان

(١) ماركس وانجلس . الايديولوجية الالمانية . الطبعة الروسية . المجلد ٣ ، ص ٥٣٦ .

العالمي الوحيد الواحد للفلسفة والثقافة الروحية الذي يحاولون احيانا تصوير اوروبا والشرق الادنى والصين والهند وغيرها من البلدان والناطق بصورتها .

ان تقسيم دور المادية القديمة العقائدي والاجتماعي لاينطوي على توضيح طابعه وحسب ، بل ايضا على توضيح انسجامه في دراسة الطبيعة والمجتمع ، ودرجة الفعالية ، والصلة بالممارسة ، وكذلك في التعبير عن مصالح فئات اجتماعية معينة . وبموجب هذه الطريقة ، لايتكشف المحدودية التاريخية للبراهين على مادية العالم وحسب ، بل يتكشف كذلك انعدام انسجام المادية القديمة التي صارت مثالية في حال تفسير المجتمع والانسان . ان الماديين القدماء ، الذين كانوا يعربون على العموم عن مصالح الفئات الاجتماعية الديموقراطية الطبيعية المرتبطة بالتجارة والحرية كامرا يمثلون الطبقات السائدة ولاسيما طبقة مالكي العبيد . ولذا كان الماديون القدماء يعتبرون الانقسام الى عبيد ومالكي عبيد امرا خالدا وطبيعيا متطابقا مع جوهرهم الطبيعي المحتم . ومن الواضح ان الموضوعات الاجتماعية للمادية القديمة كانت تقدمية نسبيا من حيث التأثير في تحطيم العلاقات القبلية العشائرية الـ الشائخة ، ولكنه لم يكن بوسعها ان تعكس تطلعات الظالمين الثورية . ثم ان العقيدة المادية الواعية قد اصبحت هي نفسها ، في ظل التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي ، امتيازاً لقسم ضئيل من ديموقراطية مالكي العبيد التي كانت تعتبر العبيد ، من ذلك ، اشياء ، ادوات ناطقة . . . بنجم من هنا ان عاقبة التفسير المثالي لتاريخ المادية القديمة وطابعها التاملي وطبيعتها الطبقة لم يكن من الممكن ان تكون اداة ورجية في يد الظالمين والمستمرين ، وراية لثورة العبيد ؛ ولم يكن من الممكن بالاحرى ان تكون الثالنية الفلسفية القديمة هذه الـ راية .

ان المذاهب الفلسفية قد انبثقت عن ظروف اولى المجتمعات الطبقة وبرزت كمقابل لانتعاش الناس المادي العضوي في الوجود الموضوعي للعالم الخارجي ، لهذا الانتعاش الذي واصلته وعمقته المادية الساذجة . وانطلاقاً من اسبقية المبدأ الروحي (الفكر الهولي ، العقل العالمي ، الوحي) واصلت الثالنية بشكل نظري علمي المظهر الاوهام الميتولوجية الدينية القديمة ولاسيما مذهب الخلق الرباني للعالم . ولقد كانت الصلة مع السدين على الدوام خاصة مميزة من خصائص الثالنية الفلسفية . « ان جميع الثالنين ، سواء منهم الفيلسوفون ام الدينيون ، الشيوخ ام

فلسفة العالم القديم كانت تتضمن أجنة الكثير من الاظمة والمدارس الفلسفية اللاحقة ولذا لاتزال دراستها عنصرا هاما من عناصر ثقافة الثوري الفلسفية . ان التضاد بين القدمات الاسبسية والوظائف المعقائدية والاجتماعية لكل من المثالية والمادية قد ادى الى قيام صراع فكري لم يتوقف حتى في ايامنا بين معسكرين ، بين حزبين في الفلسفة ، الى قيام صراع بين « خطى ديموسكريس وافلاطون » . وعليه نفهم بحزبية الفلسفة الانتساب الى احد المعسكرين ، الى احد الحزبين في الفلسفة ، علما بان هذا الانتساب يتجم في آخر المطاف عن اسباب اجتماعية طبقية ويمبر عن وظيفة اجتماعية محددة تاريخا . وبهذا المعنى بالذات قال لينين ان الفلسفة الحديثة حزبية كما منذ ٢٠٠٠ سنة .

وقد استمر الصراع بين المادية والثالية في جوارقرون الوسطى الرحي الحارق الروطة والمشقة . ولكن السيطرة الاقطاعية الاكثريكية ، وانفلات الظلامية الدينية ، ومطاردات عاظم التفتيش الكاثوليكية ، وتحويل الفلسفة الى « خادمة للدين » ، عجزت عن تحطيم انصار ومريدي الحقيقة العلمية وقوة العقل البشري . وهذا انتمهاهان في الفلسفة انعكسا في ذلك الزمن في الصراع بين الاسمية (او المذهب الاسمي الذي يؤكد اولية الاشياء وثانوية المفاهيم) والواقعية (المذهب الواقعي الذي يؤكد اولية المفاهيم الواقعية ، اساءه الاشياء) ، ان النظام السكولاسي (الكلامي) للمثالية الموضوعية الذي وضعه توما الاكوييني - او التومية - (والذي اعلن منذ عام ١٨٧٩ « الفلسفة الحقيقية الوحيدة للكاثوليكية ») هو اشهر انظمة المثالية الموضوعية . وقد تجلى تطرف الكنيسة الكاثوليكية في نزعتها المحافظة في اعترافها بمذهب توما الاكوييني مذهبها الفلسفي الرسمي بعد مرور ستة قرون على وفاة توما الاكوييني تم رسمه قديسا في عام ١٣٢٣ .

اما فيما يتعلق بالعقائد الثورية الى هذا الحد او ذاك في مرحلة القرون الوسطى ، فقد كانوا يقتلون ويبيدون عمليها بلا رحمة ولاشفقة . وفي تلك الاحوال ، لم تحصل عقيدة الثوريين على اساس وتعليل نظري فلسفي ، وكان الانكار الانتقادي للاشكال الايديولوجية الدينية السائدة هو العنصر المهيمن عندهم . وبالفعل كانت عقائد المصلحين والثوريين العمليين طوبوية ومحافضة وكانت المرطقات الدينية لاستهداف القضاء على الدين بوجه عام ، بل كانت تستهدف مجرد اصلاحه ،

تحسب ، وكان النضال ضد الظلم الاجتماعي يدور ، على العموم تحت راية العودة الى المصح القديم الى حالة الناس الطبيعية ، التي انتهكتها وشوهتها ، حسب اعزم ، الانظمة الاجتماعية القائمة . وكانت المرطقات الفلاحية الشعبية في القرون الوسطى غلانا اجتماعيا وراية فكرية للمحروب الفلاحية ضد الاقطاعية ، وقد كانت البرامج السياسية لبعض من هذه الحركات الفلاحية قريبة من الشيوعية الطوبوية السوائية . اما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اي عندما تكون الشكل الثاني تاريخيا للامية ، فان الفلسفة قد اضطلمت بدور عقائدي واجتماعي آخر . فان مقتضيات تطوهر القوى المنتجة قد دفعت المعرفة العلمية للطبيعة دفعة قوية ، واسهمت في نشوء العلوم الملموسة عن الطبيعة وفي نهوها السريع : الميكانيك ، الفيزياء ، الكيمياء . كذلك اقضى قيام وتطور اسلوب الانتاج الاشتراكي في احشاء الاقطاعية التحليل والتعليل النظري . ان البرجوازية الناهضة الفنية ، بوصفها حاملة اسلوب الانتاج الراسمالي ، قد سارت في طبيعة الحركة الشعبية المعادية للاقطاعية وبرزت كزعيمة للشورات البرجوازية والثورات البرجوازية الديموقراطية . وقد غدا تغيير شكل المادية ومضمون قضايا الفلسفة المثالية جوابا عن هذه مقتضيات الاجتماعية الجديدة . كانت مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر مادية ميكانيكية تفسر العالم والانسان بالقارنة مع قوانين ونظريات الميكانيك الكلاسيكي . ان اللوحة الميكانيكية عن العالم كانت تتطابق ، رغم طابها الوحيد الجانب ، مع المستوى التاريخي للمعرفة العلمية ، وكانت سلاحا ماضيا في النضال ضد السيادة الاقطاعية الاكثريكية . وكانت المادية الميكانيكية وثيقة الارتباط بالعلوم الطبيعية ، وكانت تعتمد على التجربة العلمية ، على تعليم الشعب وتنويره . وبهذا المعنى ، كانت اكثر فعالية من المادية القديمة رغم انها كانت تتميز هي ايضا على العموم بالطابع التأملى .

ان الماديين الاوروبيين من القرنين السابع عشر والثامن عشر قد فسروا العالم الطبيعي تفسيرا ماديا على درجة كافية من الانسجام ، ولكن مفهومهم عن العمليات التاريخية والمجتمع والانسان بقي مثاليا . فان الثورين الموسوعيين القرنسيين الذين ظفروا بشهرة عالمية ، مثلا ، كانوا يعتقدون ان « الآراء تحكم العالم » ، ولهذا ربطوا التقدم التاريخي بتنوير الشعب ، ولم يربطوه بتحويل المجتمع

تحويلاً ثورياً . وكانت مادة القرن السابع عشر والثامن عشر تشكل ، من حيث دورها الاجتماعي ، تعليلاً فلسفياً للعقيدة الثورية ، وللطبقة الاستشارية البرجوازية الصاعدة ، وكانت تتجارب مع مقتضيات التقدم في زمنها . ولكن برجوازية البلدان الأوروبية ، ما إن أقامت سيادتها السياسية ، حتى تخلت بعد فترة وجيزة نسبياً عن رايئها الفلسفية المادية . واخذت مختلف صيغ العقائد المثالية الدينية تتناسب أكثر فأكثر مع مصالح سيادتها الطبقة في الميدان الاقتصادي والسياسي والروحي .

ومن الطريف ان تشير الى ان مدارس المثالية الذاتية وما يسمى بالمثالية (١) قد تطورت اوسع التطور كمنقضى للمادية وتبعاً لطابع العلاقات القائمة على الملكية الخاصة . ان نظام هيغل المثالي الموضوعي هو ذروة تطور المثالية البرجوازية في القرن التاسع عشر . وفي الازمنة الحديثة ، اعرب ممثلو المثالية البرجوازية ، على العموم ، عن مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية المحافظة ، او الرجعية ، او التي ولي زمانها . ولكنه تبني الاشارة في الوقت نفسه الى ان بعض المثاليين عن طرحو وحلوا المسائل الفلسفية المتعلقة بعملية المعرفة واشكال المعرفة ونشاط الوعي الانساني ، قد اسهموا بالتالي في تعميق وتطوير التفكير النظري .

ان الصلة بين الفلسفة وعقيدة الديمقراطية الثورية تتسم بأهمية خاصة . فان الديمقراطية الثورية بوصفها ظاهرة اجتماعية ، تنبع من الاحوال الخاصة للبلدان التي تخلفت بحكم جملة من الاسباب عن الدرجات المناسبة للتطور التاريخي في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين . وبهذا المعنى ، تتسم الديمقراطية الثورية بطابع عالمي رغم ان ظهورها في بعض البلدان لا يتطابق من حيث التسلسل التاريخي مع ظهورها في بلدان اخرى . ان الديمقراطية ، بوصفها تياراً فكرياً سياسياً ، هي حلقة انتقالية خاصة من الحركات الاجتماعية السائرة برئاسة البرجوازية الطامحة الى السلطة ، الى الحركة التحريرية الاشتراكية ، البروليترارية .

(١) المثالية (أو اللاتينية) . - مذهب فلسفي يعتبر المبدأ المادي والمبدأ الروحي متساويين في الحقوق . وفلسفة ديكرارت وفلسفة كانط هما أبرز مثالين على المثالية بوصفها معانين للترقيف بين المادية والمثالية .

ان الاسس الفلسفية لعقيدة الديمقراطية الثورية تتوقف سواء على ظروف المصنوع التاريخي المعنية ام على التقاليد الفلسفية والثورية عند هذا الشعب او ذاك . وفي اغلب الاحوال ، كانت نظرات الديمقراطيين الثوريين الفلسفية غير متجانسة ومنسجمة ، وكانت تجتمع عناصر في متهم الاختلاف والتناقض . ومع ذلك ، ادى النشاط الثوري ، وحالة النضال الثوري ذاتها الى ظهور السعي لدى اغلبية الديمقراطيين الثوريين وراء معرفة علمية ، والتي ظهور الموقف الانتقادي من المفاهيم المثالية والاكليزية السائدة . ومن الامثلة على ذلك ، التطور الفلسفي للديمقراطي الثوري المشهور وزعيم حركة التحرر الوطني في كوريا في القرن التاسع عشر ، خرسيه مارتيه .

وفي القرن التاسع عشر ، تجلّى الاتجاه المادي باسطح شكل في فلسفة الديمقراطيين الثوريين الروس ، ابتداء من هرتسين حتى تشيرنيشيفسكي . فان السات التي تميزت بها فلسفتهم لم تقتصر على فهم الطبيعة فهماً مادياً ، بل شملت كذلك عمارة النظر طبقة الى الظواهرات الاجتماعية . وللمرة الاولى ، خصصت الفلسفة المادية في عقيدتهم ، عن وعي وادراك لمصالح الطبقة المظلومة ، لمصالح الثورة الفلاحية التي كرسوا حياتهم لتخليها وتطويرها . وقد قدر ماركس وانجلز ولينين رفيع التقدير آراء الديمقراطيين الثوريين الروس النظريه ونشاطهم ، علماً بان هؤلاء تركوا اثراً ملحوظاً في تطوير الفكر النظري وفي التقاليد الفلسفية للمادة وفي الممارسة الثورية . ولكن الديمقراطيين الثوريين الروس لم يتغلبوا على الفهم المثالي للتطور الاجتماعي ، ولهذا كانت نظراتهم وأعمالهم في ثورة فلاحية في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث كانت الرأسمالية قد تطورت ، عبارة عن احد اشكال الطوبوية الاجتماعية .

ان استعراضاً موجزاً للاشكال التاريخية للمادية والمثالية على الصعيد الذي يهمنا ، اي صعيد الصلة بين الفلسفة والممارسة الثورية ، يتيح استخلاص بعض الاستنتاجات الهامة . اولاً ، ان المادية الفلسفية بجميع اشكالها قد اسهمت دائماً ، رغم المحدودية التاريخية للمعارف الملموسة عن العالم الخارجي والانسان ، في معرفة العالم معرفة علمية وفي رسم لوحة علمية عن العالم . فان العناصر العرفانية العلمية التي تنطوي عليها المادية قد اتاحت بها ان يبرز بوصفها اساس عقيدة أكثر الطبقات

«البيت» ، «الطائرة» وغيرها . وبفضل دراسة العلوم الملموسة للخصائص والصلات الهامة لاشياء معينة ، ولهذه اولئك من ميادين النشاط ، دراسة اكثر تعمقا ، دراسة مختصة ، تتكون المفاهيم العلمية . وهذه المفاهيم الاساسية ، العامة بالنسبة للعلم معنى تسمى مقولات هذا العلم .

لكل علم مقولاته . وفي مقولات العلوم الملموسة تنعكس بصورة معممة خصائص التنظيم والحالة والصلة والتغير اللازمه لمختلف ميادين او مجموعات اشياء الطبيعة والمجتمع . مثلا . مقولات الميكانيك - الكتلة والطاقة ؛ مقولات البيولوجيا - الخلية ، العضوية ، الوراثة ؛ مقولات السيرنيك - الاعلام ، البرجة ، الصلة العكسية ؛ مقولات الاقتصاد السياسي - القيمة ، التبادل ، تجديد الانتاج .

ان كلا من المقولات الفلسفية - خلافا لمقولات العلوم الملموسة - هي واسعة الى اقصى حد من حيث حجم المفهوم العلمي الذي تنعكس فيه الجوانب والصلات الجوهرية اللازمة لكل شيء ولكل عملية من عمليات الواقع . مثلا ، يمكننا ان نتصور كل شيء وكل ظاهرة وكل عملية بصورة مجموعة معينة من اقسام مكونة تشكل مضمونها ، وان نعطيها وصفا كميا معيناً . وهذا يعني ان المقولتين الفلسفتين «المضمون» و«الكمية» تعكسان امرا مشتركا موجودا فعلا وملازما لجميع اشياء وظاهرات الواقع الموضوعي .

ان الفلسفة المادية قد اعطت حلا علميا لقضية اصل المقولات . فكما كتب لينين ، « يواجه الانسان شبكة ظاهرات الطبيعة . الانسان الغريزي ، المتوحش ، لا يفرز نفسه عن الطبيعة . الانسان الواعي يفرز مقولات ، وهو ، درجات الفرز ، ان درجات معرفة العالم ، العقد في الشبكة ، التي تساعد في معرفتها وفي امتلاكها» (١) . في هذا الرأي ، اشار لينين الى الاساس الموضوعي لنشوء وتطور وتكون المقولات ، والى طابعها التاريخي والى دورها في عملية المعرفة ، واغرب عن الفكرة القائلة ان المقولات تنبثق وتتطور على اساس تعميم تجزئة معرفة وتحويل العالم ، على اساس الممارسة الاجتماعية التاريخية ، على اساس تطور الانتاج والمعلوم الخاصة والفلسفة .

(١) لينين . الدفاتير الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٨١ - ٨٢ .

والفئات الاجتماعية تقدما بالنسبة لزمها . ولكن المادية السابقة لماركس لم تستطع ، بحكم عدم انسجامها وتماثلها الفلسفي ، وبحكم مثاليها التاريخية وبحكم طابعها التاملي ، وكذلك بحكم الظروف التاريخية ، ان تكون تعليلا علميا فلسفيا لتورة الجماهير المظلومة والمستثمرة .

نايا . كشفت القالية الفلسفية فساد اتجاهها العقائدي والاجتماعي . فان الصور المثالية الدينية عن العالم قد اسهمت في توطيد الضلالات الزمنة ، واعاقت تطور عناصر المعرفة العلمية ، وعززت السيطرة الفكرية والسياسية للقوى الرجعية من الطبقات الاستشارية . وقد برز تأثير المثالية على الاخص في مذاهب ومفاهيم التطور الاجتماعي التاريخي ، وطور تقاليد الفهم الخالي للتاريخ ، لاعند المتأخرين انفسهم وعند ايدولوجي الطبقات السائدة انفسهم وحسب ، بل ايضا عند ممثلي المادية السابقة لماركس . ان سيطرة المثالية التاريخية قد استتهدت عبويا جذرية في الاتجاه الاجتماعي - الطوبوية ، القضاء والقدر ، الارادية ، التاملية . وفي اواسط القرن التاسع عشر ، اصبحت هذه المحدوديات والقيود التاريخية للفلسفة السابقة ، وتختلف وظيفتها العقائدية والاجتماعية عن مقتضيات الاجتماعية واضحة واولية الى حد انها تطلبت انقلابا جذريا في التصورات السابقة . كذلك احتاجت الوظيفة المناهجة للفلسفة الى تغييرات جذرية .

دور الفلسفة العرفاني والمناهجي في نشاط الناس

ان توضيح المفاهيم والمبادئ الفلسفية هو خطوة هامة تعمق فهم وظائف الفلسفة ومكانها ودورها في عقيدة الثوريين ونشاطهم . وفي هذه المفاهيم الخاصة المسماة بالمقولات الفلسفية ، يتركز المضمون النظري الاساس للانظمة الفلسفية ايا كانت .

كذلك ينبغي التمييز بين مقولات الفاسفة وبين المفاهيم العادية ومقولات العلوم الخاصة على السواء ، رغم انها احيانا بالكلمات ذاتها . ففي المفاهيم العادية ، يعمم الناس على بعض خواص مجموعة معينة من الاشياء او الظاهرات التي يستوعبونها ويعرفونها . ومن الامثلة على هذا الضرب من المفاهيم ، مفاهيم « الشجرة » ،

ان المادية والثالية تفسران بصورة متضادة منشأ ومضمون المقولات . فان الثالية تسم بسمه عامة قوامها الزعم ان المقولات لاتعكس العالم الموضوعي . فان هينل ، مثلا ، قد فهم المقولات على انها تحمل للفكرة المطلقة ، للعقل العام . والثاليون الذاتيون يرون في المقولات نتاج نشاط التفكير البشري بدون اي صلة مع العالم الفعلي . فان البرغهايتيين (العمليين) ، مثلا ، يعتبرون جميع المفاهيم مفاهيم ذاتية وغير محددة ، يصنعها الانسان ويستغلها لاجل بلوغ اهدافه . وهناك عدد لا بأس به من الثاليين يعتقدون ان المقولات هي نتيجة اتفاق ، نتيجة اتفاق اعتباطي بين الناس بصدد مضمونها ومغزاها . ان الفهوم التالي للمقولات يرتكز على واقع انها موجودة في رأس الانسان فقط .

ان كل مقولة موضوعية من حيث مضمونها بوصفها انعكاسا للعالم الخارجي ، وذاتية من حيث شكلها . ان مضمون المقولات - جوانب وصلات عامة معينة موجودة في العلم الموضوعي ، خارج الوعي الاجتماعي . ان ذاتية المقولات تفهم بمعنى الشكل المنطقي ، المجرد ، لعكس الواقع ، الملازم فقط للذات (الفاعل) ، وللانسان ، وللانسانية . وكل تعميم هو تجريد عن جوانب وخواص ما ، جزئية . ولكن التجريد العلمي لايعني الانفصال عن الواقع ، بل على العكس ؛ فان التجريد العلمي ، المعبر عنه بالمقولات ، يكشف بيزيد من العمق الواقع وجوانبه الداخلية ، الجوهرية ، الاكثر تحفيا .

ومن هنا ينجم ان اهم السمات التي تميز المقولات الفلسفية هي شمولية وموضوعية مضمونها . ان قضايا منشأ المقولات الفلسفية ومضمونها وشموليتها تشغل مكان الصدارة في الصراع بين المادية والثالية منذ قرون وقرون . ان سبب هذا الصراع يكمن في الوظيفة الخاصة للمقولات الفلسفية . ان مقولات العلوم الخاصة تدرس الصلوات الملموسة في ميدان معين من ميادين النشاط ، وتسم بجانب من الاهمية ، بصورة رئيسية ، لاجل معرفة الميدان المعنى الضيق نسبيا . اما المقولات الفلسفية ، فانها تشكل ، بفضل عموميتها ، المقدمات المطلقة لاجل دراسة وتفسير جميع ميادين النشاط . وبدون استعمال المقولات الفلسفية ، يستحيل البحث العلمي المعاصر . ذلك ان مقولات المنطق الديالكتيكي الفلسفية ، كما بين لينين ، مترابطة فيما بينها بصورة لا انفصام لعراها ، متحركة ، تنتقل احداها الى الاخرى ،

وتحلى بمرورته عامة شاملة . « ان هذه المرورته ، الطبقة بصورة ذاتية ، تسمى الاختيارية والفسطائية . والمرورته ، الطبقة بصورة موضوعية ، انها تنمكس جميع الجوانب العملية المادية ووحدة هذه العملية ، هي انعكاس صحيح لتطور العالم تطورا ابديا » (١) .

ان كل معرفة علمية للفرد ، وكل عمل اجتماعي له ، وحتى سلوكه الاجتماعي انما تضبطها بصورة عفوية او واعية هذه او تلك من المبادئ العقائدية . ونحن نفهم بمبادئ العلم اوبمقتضياته الاساسية موضوعات منطوية ووحدة تنمكس وتعمم فيها اهم وابرز جوانب نشاط الناس العرفاني والعملي في ميدان معين من ميادين العالم الموضوعي . وقد اشار انجلس الى ان المبادئ هي نتيجة البحث النهائية وانها لاتكون صحيحة الا بقدر ماتتطابق مع الطبيعة والتاريخ . وهذا يعني ان المبادئ ليست تجمل قواعد اعتباطية ، بل انعكاس للموضوعي في المعرفة والتفكير ، وحاصل واستنتاج من نشاط البشرية العرفاني والعملي .

ان المبادئ الفلسفية هي تجمل اعم المقدمات المنطقية والافكار الهادية الاساسية التي تصف فهم العالم وموقف الانسان منه في المستوى المعنى للمعرفة وللمارسة التاريخية . وفي عداد هذه المبادئ الفلسفية ، ترد المبادئ المدروسة سابقا - مبدأ اولية المادي ، ومبدأ حزية الفلسفية ، وجملة اخرى من المبادئ . ان حل المسألة الاساسية في الفلسفة حلا متضادا يجدد سلفا تضاد المبادئ الفلسفية للمادية والثالية كما يجدد سلفا تضاد وظيفتها العرفانية والديهادية . ان المبادئ والمقولات الفلسفية المصنفة تمارس تأثيرا متنوع الرجوه على نشاط الناس . ففي وحدة النظرة الفلسفية الى العالم والطبيعة والمجتمع والتفكير والمعرفة ، كما سبق وقلنا ، تتجلى الوظيفة العقائدية للفلسفة وفي الاسباب الطبقة الاجتماعية لهذا الضرب او ذاك من الفلسفة ، وفي تغيرات مضمونها التاريخية ، ولاسيما في تأثيرها على التطور الاجتماعي ، تتجلى الوظيفة الاجتماعية للفلسفة . وفي المذهب الفلسفي . بصدد التفكير والمعرفة ، وفي قوانينها واشكالها ، تتجلى

(١) لينين . الدفاتير الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٩٩ .

مصباح كشاف لا ينضب معين نوره وانبشاقه جواره لاجل البحوث العلمية لاجل النشاط التحويلي الثوري . ولكن انبشاقه سبقه طريق تاريخي طويل من البحوث والضلالات الفلسفية .

فحتى في الفلسفة القديمة ، نجد اجنة المنهجين المتضادين : الديالكتيك (او الجدلية) واليتا فيزياء . فجوابا عن مسألة حالة العالم المحيط ، اكد الديالكتيك العقوي ان كل شيء يجري وكل شيء يتغير . اما الميتافيزيائيون الاقدمون ، فانهم ، على العكس ، قد استعظمو سكون الوجود وعدم تغيره وانعدام حركته . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، انبثقت الميتافيزياء كطريقة (او منهج) للمعرفة في العلوم الطبيعية ، عندما كانت المادية العلمية تتراكم ، كانت الدراسة تتناول مختلف الاشياء والوقائع . ان الطريقة الميتافيزائية مشروعة ، ومشروطة تاريخيا بالنسبة لرحلة التجميع هذه في تطوير العلوم الطبيعية . ولكن سرعان ماشرح ما يلازمها من محدودية وطابع وجد الجانب الجولان دون تطور المعرفة العلمية لاحقا . فان الميتافيزياء تعجز عن تفسير الواقع تفسيرا علميا لانها تعزل الاشياء والظواهرات بعضها عن بعض ، وتدرسها في معزل عن الصلة المشتركة والحركة المشتركة والتطور المشترك ، وتختصر التغيرات في مجرد الزيادة الكمية وفي مجرد النقص الكمي .

اما الديالكتيك (الجدلية) ، بوصفه طريقة (او منهجا) فلسفية ، فقد تطور بالارتباط مع مقتضيات التقدم الاجتماعي ، بوصفه مذهباً عن الصلة المشتركة والتطور المشترك للعالم الموضوعي والتفكير فليس هناك بالنسبة للفلسفة الديالكتيكية ، شيء نهائي ، مطلق ، مقدس . انها ترى حتمية الانهيار في كل شيء ، ولا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجهها الا المجرى المستمر للنشوء والزوال ، للصمود اللامتناهي من ادنى الى اعلى^(١) .

ان الفكرة المركزية في الديالكتيك - فكرة التغير اللامتناهي والتطور اللامتناهي - قد شقت الطريق لنفسها مجتمعة الى مختلف الانظمة الفلسفية المادية والثالية .

(١) انجس . لودفيغ فوريباخ وبهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . دار التقدم . موسكو . ١٩٦٧ . ص ١٠ .

الوظيفة العرفانية للفلسفة .

ان قضايا عملية المعرفة تشغل في نشاط الناس درجة من الامة بحيث ان تفسيرها الفلسفي بصور مختلفة يؤثر كذلك في جميع الوظائف الاخرى للفلسفة .

وفضلا عن ذلك ، يتيح الفهم العلمي لعملية المعرفة كشف اسباب النظرات المشوهة الى العالم ، بما فيها الجذور العرفانية للمثالية ذاتها . ولناحظ انه مامن انسان مصون عن الضلالات وحتى عن الالخطاء المثالية . فان تعقد عملية المعرفة ، ونقص معارفنا التاريخي وحدوديتها التاريخية ، واجتماع الضلالات والتصورات الخاطئة الى الحقائق العلمية ، - كل هذا يجعل من الممكن فهم العالم فهما مشوها . ولكنه لايجوز الخلط بين الضلالات الجزئية وحتى الالخطاء المثالية التي يقرؤها انسان بمفرده وبين نظام موضوع من الفلسفة المثالية ان المثالية الفلسفية هي وحيدة الجانب ، مضخمة تطوير (نفخ) تضخيم (احد خطوط جوانب ، حدود المعرفة الى مطلق مفسول عن الماده ، عن الطبيعية ، مؤله^(١) . ان الامكانيات العرفانية لتطوير مثل هذه النظرات الوحيدة الجانب الى نظام من الفلسفة المثالية تتحول الى واقع حين تطابق مع المصالح الطبقية الالمانية لفئات اجتماعية معينة وتحظى بدعمها وساندها . ومن هنا تنبع ضرورة التحليل الملموس لهذه او تلك من انواع واشكال المثالية التي يلازمها اجتماع من الجذور الطبقية الاجتماعية والجذور العرفانية .

ان فعالية وتأثير المقررات الفلسفية في نشاط الناس العرفاني والعمل يتوقفان سواء على تفسير مضمونها ام على جمعها في منهج فلسفي معين . ونحن نفهم بالمنهج الفلسفي اسلوبا خاصا وطرائق للمعرفة تتيج لنا ان نكشف عمليات الطبيعة والمجتمع والتفكير والنشاط الاجتماعي بالكثر ما يكون من الكمال والشمول والعمق ، وان نحدد بالتالي الاعمال الضرورية لاجل بلوغ الاهداف المنشودة .

لقد قال الفيلسوف المادي البريطاني الكبير فرنسيس باكون في حينه ان المنهج (او الطريقة) انما هو مشعل ينير السبيل امام السائر في الظلمة . واذا اصلنا هذا التشبيه ، امكنتنا ان نؤكد ان المنهج الفلسفي العلمي في الظروف المعاصرة هو

(١) لينين . الدفاتر الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

ولهذا نجد في تاريخ التفكير النظري تركيبات مختلفة للنظرية الفلسفية والطريقة الفلسفية : المادة الميتافيزيقائية والنشائية الميتافيزيقائية ، الديالكتيك الثالي والديالكتيك المادي^(١) . مثلا : ان مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن ميكانيكية وحسب ، بل ايضا ميتافيزيقائية من حيث طريقها . فان نظام هيغل الفلسفي يتميز بجمع المثالية الى الطريقة الديالكتيكية اوفي ووسع نحو .

ولارب في ان فكرة الديالكتيك المركزية - فكرة التغير اللاتماهي والتطور اللاتماهي - هي الانجح من حيث المبدأ لاجل توجيه نشاط الناس العملي ؛ ولكن هذه الفكرة في اطار نظام هيغل الفلسفي المثالي الناجز قد اقتضرت على تحرك المفاهيم الذاتي ، ولم يكن بوسعها ان تكون دليلا في الممارسة الاجتماعية التاريخية وبالاحرى في تحويل العالم تحويلا ثوريا . اما الطريقة الديالكتيكية ، فانها لم تصح اداة جبراة لمعرفة العالم معرفة علمية ولتحويله تحويلا ثوريا الاجمعها مع المادية الفلسفية المنسجمة المتناسكة . ان هذا الجمع بين المادية والديالكتيك - ، وبالتالي تغيير وظيفتها المعرفانية والنهائية تغييرا جذريا - ، قد تحقق بنشؤ الفلسفة الماركسية - اللينينية .

* * *

(١) نجد الاشارة الى ان المقصود بالميتافيزياء حتى اواخر القرن الثامن عشر ، وحيثا في الفلسفة المعاصرة غير الماركسية ، المذاهب الفلسفية التي تدرس على العموم قضايا المبدأ غير المادي ، قضايا ما يزعم انه موجود خارج حدود العالم الفيزيائي (الطبيعي) . وفي الفلسفة المعاصرة ، توصف الميتافيزياء بانها طريقة منافية للديالكتيك .

الفلسفة الماركسية - اللينينية - الاساس النظري للنشاط التحويلي الثوري

المقدمات التاريخية لنشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية

ان دراسة المقدمات التاريخية ، ونوعي بها المقدمات الاجتماعية والاقتصادية والنظرية والعلوم الطبيعية - لنشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية ودراسة مراحل تطورها تكشف نظريتها الاجتماعية ، واهم خصائص مضمونها ووظيفتها ؛ وتتيح ، فضلا عن ذلك ، تقديم البرهان على وهن وطلان الدرائع والحجج المستعملة لنقد وانكار وتشريره الفلسفة الماركسية - اللينينية سواء في الصراع الایدولوجي الماضي ام الحاضر . وبين العديد من التزييفات تبرز المحاولات لاعتبار الفلسفة الماركسية - اللينينية والفلسفة الهغلية او « المادية الاقتصادية » شيئا واحدا ، او ببرز ، على العكس ، الزعم القائل بوجود انتهاك للتتابع في التفكير النظري ، بوجود انقطاع من ثقافة الغرب الروحية . وهناك صيغة مضادة شكلا للتزييف المعاصر تعبر عنها المرسوسة القائلة ان الماركسية - اللينينية وفلسفتها - ظاهرة « اوروية » صرف ، « المانية » صرف او ظاهرة « روسية » صرف ، ان المحاولات التي يبذلها الانتهازيون واعداء الشيوعية في الظرف الراهن لتشويه المضمون الاممي للمذهب الماركسي - اللينيني هي اعتراف اضطراري بقوة جاذبيته وتعاظم تأثيره في العملية الثورية العالمية .

وبالفعل ، كان نشوء وتطور الفلسفة الماركسية - اللينينية جوابا عن مقتضيات الاجتماعية الفعلية لمهود ملموسة من التاريخ العالمي ، وتحليلا جديدا وتعميما لتجربة النضال الطبقي ولاسمى التجزرات التي حققتها البشرية في ميدان المعرفة العلمية والتفكير الفلسفي .